صقر الجزيرة

رواية تاريخية

حسني سيد لبيب

صقر الجزيرة

رواية تاريخية

وهي الرواية الفائزة بالجائزة الثالثة بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض عام ١٩٩٩م
بمناسبة العيد المئوي لتاسيس المملكة العربية السعودية

بقلم

حسني سيد لبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذه الروايـــة

هذه الرواية مستقاة ومستوحاة من أحداث تاريخية مرت بها المملكة العربية السعودية.

أخضعت الرواية لمعايير فنية، مع الحرص على الحدث التاريخي، مما جعلني أزاوج بين القيمة الفنية للعمل الروائي، والمسرد التاريخي للأحداث.. كما قدمت شخصيات واقعية، وابتدعت شخصيات أخرى ثانوية تفيد في نسج وحبك العمل الروائي.

تدور أحداث الرواية في فترتين من فترات تأسيس المملكة العربية السعودية: الأولى قبيل انهيار الدولة السعودية الأولى، والثانية عند تأسيس الدولة السعودية الثالثة بقيادة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود..

وعلى الله قصد السبيل.

حسنى سيد لبيب

القاهرة فى : ١٥ شوال ١٤١٨هـ

(الموافق ١٢ فبراير ١٩٩٨م)

الفصل الأول

الأميرة غالية

غالية امرأة حجازية شجاعة. لم تترك الرجال يحاربون وحدهم، وإنما أمدتهم بالمال، وساعدتهم بالرأى والمشورة.

غالية اسم مضئ فى تاريخ الحجاز، وقصة كفاح واقعية، لكنها أقرب إلى الأسطورة.

كان يمكن أن تختار حياة الدعة وتعتصم بدارها، كغيرها من السيدات. مات زوجها عن سعة، وترك لها أموالاً طائلة، وداراً فخمة، وأرضاً فسيحة.. لكنه قبل أن يموت، أوصاها بأن تمد يد المساعدة لمن هو فى حاجة إليها.. عملت بالوصية، ولم تدخر وسعاً فى مساعدة الوهابين وآل سعود فى كفاحهم العادل، حفاظاً على تعاليم الإسلام ووحدة البلاد. وما من رجل أتى طالباً المساعدة، إلا أجزلت له العطاء بنفس راضية. وما من فقير فى قبيلة (البقوم) التى تنتمى إليها، إلا مدت له يد المساعدة عن طيب خاطر..

ذاع صيتها، واشتهرت بين العشائر امرأة كريمة سخية، بالإضافة إلى تشجيعها للمناضلين. وكانت دارها مضاءة على الدوام، يقصدها كل ذى حاجة، وما أكثر الولائم التى أعدتها للفقراء.

وتعدى الأمر، حب غالية للخير، فقد اضطر المجاهدون الذين يقاومون الغزاة، إلى الاحتماء فى بيتها، موقنين أنه ليس محط أنظار الخصوم، الذين يرصدون أى تحرك بواسطة عيونهم المندسين فى كل مكان.. وما من إنسان إلا وينطق اسم الأميرة غالية بالفخر والاعتزاز..

مات زوجها، فوهبت عمرها لولدها جاسر وابنتها زملة، ومساعدة بنى جلدتها ونجدتهم.

غالية مثال للمرأة العربية المناضلة.. لجأ إليها الدعاة والمجاهدون، يحتمون فى دارها، ويعقدون فيها مجالسهم، ويطلبون مشورتها. ورغم أن للقبيلة زعيماً يدعى رشيد بن جرشان، أمير (تربة) فى ذلك الوقت، إلا أن غالية اشتهرت بسعة الأفق ورجاحة العقل. وكانت على دراية بأحوال قبيلتها، وأحوال القبائل المجاورة. لذا لا نبالغ إذا قلنا إنها أميرة قومها وزعيمتهم. وقد اتخذ بيتها مقراً وملتقى لزعماء الوهابين، الذين يطلقون عليها اسم (الأميرة غالية).

لاذ بدارها زعماء الوهابين، وفى عيونهم جزع، ويشوب تصرفاتهم توتر وانفعال.. هدأت من روعهم، وشاركتهم التفكير، فالأمر جد خطير.. قد أقبل جنود الخيالة، الذين يحرسون مدينة (تربة) عند الأطراف، يخبرون زعماءهم أن الغزاة بدأوا يتحركون صوب المدينة، وقد عسكروا فى وادى البطين..

قالت غالية :

– إن الغزاة غرباء عن بلادنا.. ونحن أقوى، إذا وثقنا فى أنفسنا..

قال أحد الزعماء :

– إنهم يملكون أسلحة حديثة لانعرفها..

ردت عليه غالية :

– ونحن نملك الإيمان، ونستطيع الاستماتة فى الدفاع عن أرضنا..

– حقاً أيتها الأميرة..

– فلنعبئ قواتنا، ونستنجد بأمراء القبائل المجاورة..

قال أحدهم :

– أرى أن نكسب الوقت، ونرسل رسلاً لشيوخ القبائل والعشائر..

وقال آخر جزعاً، وفى نبرة صوته حماس الشباب واندفاعهم :

– لماذا لانبدأ نحن بالهجوم، كسباً للوقت؟ أخشى إذا ما تأخرنا لحين تعبئة قواتنا وقوات جيراننا، أن يدخلوا (تربة) ويستولوا عليها..

وافقته على رأيه، وأضافت :

– أعرف حماسك أيها الفتى. لكن التريث مطلوب ..

احمر وجهه، وبدا عليه الانفعال..

– إلى متى التريث ؟ أنترك المغيرين يدخلون المدينة ويستبيحون أرضنا؟

وقال آخر :

– إنى لا أفهم .. كيف يغزو المصريون أرضنا، وهم أحباؤنا وأخوتنا؟

أجابت غالية :

– إن المصريين ليسوا بغزاة. هم أخوتنا حقاً. لكن الحاكم محمد على يأتمر بأمر أسياده فى (الأستانة) أو (الباب العالى)، مقر حكم الامبراطورية العثمانية، التى لاهم لها الآن إلا التوسع..

قال أحد الرجال :

– أرحت بالى وخاطرى أيتها الأميرة الغالية. كدت أطلق زوجتى المصرية، رغم وفائها وإخلاصها.

وقال زعيم إحدى العشائر :

– قد درست فى الأزهر الشريف، وعشت فى قاهرة المعز.. اختلطت بالمصريين، البسطاء منهم وعلية القوم.. فما وجدت إلا شعباً طيب الأعراق، متمسكاً بتعاليم دينه الحنيف..

استطردت غالية :

– لو استفتيتم المصريين، لرفضوا هذا القتال الذى يدور على بعد ألف ميل من أرضهم.. وقتال من؟ المسلم يقاتل المسلم، فى حرب لاهدف من ورائها إلا التوسع..

تنهد رجل متأثراً :

– اللهم إنى لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه.. أين مانحن فيه الآن، من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه"؟

قالت تهدئ الجمع الملتف حولها :

– ليس أمامنا من حيلة إلا القتال، حتى يمتنع الباغى عن غيه، ويهديه الله إلى جادة الصواب. ونحن لانقاتل أخوتنا المسلمين، بقدر مانقاتل جنوداً أرسلهم والى مصر، الذى لم يتورع وسجن اثنين من أئمة المسلمين، لأنهما جاهرا بأنه ينبغى ألا يتدخل الجيش المصرى فى شئون جيرانه. وظلا فى السجن حتى ماتا من التعذيب وسوء المعاملة، طبقاً لما وصلنى من أخبار من أمير سعودى على لسان أحد القادمين من أرض الكنانة. فقد سيطر محمد على على الأزهر بعد تشريد زعمائه، وطرد مشايخه، ومصادرة أوقاف الأزهر، ونزع ملكية الأراضى التابعة له. كان مفتوناً بمدنية الغرب شكلاً ومضموناً، متناسياً فضل حضارة العرب على الغرب. وقد عنى واهتم بالتقدم المادى، وأغفل الجانب الروحى. وهو من أصل ألبانى، تولى ولاية مصر بفرمان سلطانى، رضوخا لإجماع شعبى فى مصر، واستطاع الاستقلال بمصر، لكنه ضرب الحركة الوطنية..

تشاور الرجال، بينما لاذت غالية بالصمت فترة ليست قصيرة أطرقت شاردة تفكر فى وسيلة لرد الغازى، ثم قالت لهم :

– أفكر فى ...

وصمتت لحظات، فاستحثوها قائلين فى صوت واحد :

– فيم تفكرين ؟ وماذا ترين ؟

– إنى أرى أن نقطع الماء من الأفلاج عنهم، على ألا نهاجمهم الآن، بل نتركهم بدون ماء.. وفى نفس الوقت، نعبئ قواتنا، ثم نحاصرهم فى المنطقة التى يعسكرون فيها..

صاح أحدهم فى حماس :

– ما أرجح عقلك أيتها الأميرة.. منطق سليم وخطة محكمة..

وبدأت غالية توزع الأدوار على الرجال الملتفين حولها : وانصاع الكل لتوجيهاتها، واعتبروها قائدة لمعركتهم القادمة..

نفذوا الخطة، فعملوا على قطع المياه عن وادى البطين، بينما تجمعت فصائل المحاربين فى شكل وحدات منظمة مجهزة.. وسارع الشباب من القبائل المجاورة، للمشاركة فى القتال، درءاً لخطر داهم يتهددهم جميعاً.

وفى غضون الأيام الأربعة التالية، تحرك شيوخ المدينة، كل اتخذ وجهته إلى قبيلة من القبائل المجاورة، طلباً للعون والنجدة.

والتفت الكتائب محاصرين الغزاة المتجمعين فى سهل البطين. ورأت غالية الذهاب إلى أمير منطقة تربة، الشيخ رشيد بن جرشان، وشرح ما اعتزم الرجال المقاتلون أن ينفذوه، فأثنى عليهم، وبذلك ضمنت المرأة التأييد، ولم تترك وسيلة. أو حيلة إلا لجأت إليها، ضماناً لاتحاد الجميع فى وجه الخطر الزاحف.

وجاءها جاسم، قائد مجموعة من المقاتلين، ومعه جندى مصرى يدعى محمود .. قالت غالية :

– لماذا أتيت به دون أن تقيد يديه ؟

– ما رأيت حاجة لذلك. فقد اتجه إلى المعسكر الذى نصبت فيه خيامى، رافعاً يديه، فأذنت له.. وقال كلاماً عجيباً.. فرأيت أن آتى به، لتسمعى منه..

قال محمود :

– حين أحسست أنه من العار أن يقتل المسلم أخاه المسلم، فضلت الاستسلام على الاشتراك فى معركة لا أومن بجدواها..

قالت غالية :

– هل دفعك إلى ذلك الجوع والعطش ؟

– لا .. هو ماقلت لك.. أعلم أننى مهدد بالقتل، قد تسللت فى ظلمة الليل، واختبأت ملتصقاً بنخلة، ثم اتجهت إلى أقرب معسكر مع أول خيط ضوء، بعد أن احتميت وراء ربوة عالية، وضمنت أننى أصبحت بعيداً عن الأنظار..

سألت غالية :

– وماذا تريد ؟

– أريد زيارة بيت الله الحرام، والإقامة ما تبقى لى من عمر فى مكة المكرمة.. ولن أعود إلى بلدى حتى تزول الغمة ويفئ ولاة الأمور إلى أن أمة الإسلام أمة واحدة، وينبغى أن تتحرر نفوسنا من البغضاء..

قالت معجبة :

– ما أبلغ قولك أيها الفتى ؟

هلل جاسم وكبر، قائلاً :

– مرحباً بك .. يا ابن النيل ..

وبعثت إلى أمير تربة برسالة مختصرة، تقول فيها :

"أوصيكم بمحمود خيراً.. وأرجو أن تقبلوه ضيفاً كريماً فى بلادنا.."

واطمأنت غالية إلى الروح المعنوية العالية التى يتحلى بها الجنود.. وفى اليوم الرابع، صدرت الأوامر للكتائب المتحلقة، بالهجوم على معسكر سهل البطين، على أن يتركوا منفذاً واحداً يهرب منه من يشاء من الغزاة، الذين كانوا فى حال سيئة، وأثر عليهم قطع المياه.. وفوجئوا مع خيوط ضوء الصباح، باقتراب كتائب جنود تربة منهم، فبادلوهم إطلاق النار.. وسقط قتلى كثيرون، ووضح لطوسون، قائد الحملة، أن المعركة التى يخوضها غير متكافئة.. فالعساكر محاصرون.. ولاشك أنهم هالكون، ولن يفلتوا من القبضة المحكمة التى التفت من حولهم، ومن المنفذ الوحيد، بدأ جنوده يهربون منه. وواصل القتال إلى أن أدرك فشل المهمة القتالية.. فآثر الانسحاب هو ومن معه من الجنود، تاركين خيامهم وعتادهم.. وأثناء الانسحاب، تعقبهم مقاتلو تربة، وقتلوا منهم نحو سبعمائة نفس، ومات الكثير جوعاً وعطشاً.

رسالة إلى الإمام

كان محمد على يحلم بإقامة امبرواطورية مترامية الأطراف وما إن علم بالهزيمة، حتى بدأ فى تجهيز حملة عسكرية أخرى، دفعه إلى ذلك كثرة ضحايا معركة وادى البطين، وسوء حالة جنوده.. فكان مدفوعاً إلى الإنتقام أكثر من أى هدف أو غاية أخرى، فحشد قوة عسكرية مدربة ومجهزة، ضم إليها الآلاف من الشباب المصرى، وساقه إلى مالا يرغب.. بلغ عدد أفراد الحملة نحو اثنى عشر ألف مدفع وألف مقاتل.. كما زود الحملة بخمسمائة فأس، لقطع أشجار النخيل التى تحيط بمدينة تربة، والتى رأى فيها حاجزاً طبيعياً، تسبب فى هزيمة طوسون.. وضع فى خطته حفر نفق يضع فيه المتفجرات حتى ينسف مبانى المدينة.. وازاء هذا التوتر، علاوة على تغلغل عيونه فى كل مكان، هادفاً بث الرعب فى القلوب، وإعدام عدد من البدو تخويفاً وترهيباً.. إلا أن غالية الشجاعة، استحثت الهمم لقتال عسكر محمد على.. وتنامت إليها أنباء الحملة العسكرية القادمة من مكة المكرمة، مارة بالزيعة والطائف وبسل وكلاخ.. إلى أن اقتربت من حدود مدينة (تربة).. تصدت للحملة قوة الوهابين التى تصل إلى خمسة وثلاثين ألف مقاتل، من بينهم فيصل بن سعود بن عبد العزيز، وطامى بن شعيب، وأبى ملحة من (عسير)، وابن قطنان من (سبيع)، ورشيد بن جرشان أمير (تربة)، وابن شكبان زعيم (بيشة)، وخربوش شيخ عرب (غامد)، وابن دهمان شيخ عرب (شمران)، والكتامى زعيم قبيلة من (عتيبة)، وابن ماحى زعيم من قبيلة (الدواسر).

أبت غالية الدخول فى طاعة محمد على، رغم ما سمعته عن حملته العسكرية التى استولت على عديد من المدن، فى مسيرتها إلى (تربة).. و(تربة) فى ذلك الوقت، هى الموقع الحربى الحصين للأمير سعود بن عبد العزيز، وتحصن فيها ابنه فيصل من أجل استعادة

(الطائف) التى استولى عليها جنود محمد على، بعد سقوط (المدينة المنورة) و(جدة) و(مكة المكرمة). كانت غالية مؤمنة بأن مقاومة أهل (تربة) للغزاة، هى فى سبيل الله، والدفاع عن الإسلام ضد الأفكار الدخيلة. تعلم أن محمد على تسبقه شهرته فى تحديث مصر، وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا، للوقوف على نواحى نهضتها، وإنشاء ترسانة عسكرية قوية.. وما إلى ذلك من عوامل التقدم الذى لم تعهده بلاده من قبل. تعلم كل هذا، وتعيه جيداً.. لكنها الآن مهمومة بهجمته الشرسة على بلاد الحجاز.. لماذا قاد الحملة ضد الوهابيين؟ أمن أجل مجد زائل؟ أم أنه يتحالف مع الأتراك، ويأتمر بأوامرهم، وينفذ تعاليم السلطان العثمانى؟

قضت ليلتها مؤرقة مسهدة، لم تذق للنوم طعماً.. أضاءت المصباح الزيتى، وراجعت مذكرات كتبها زوجها، واستحسانه الشهادة فى سبيل اعلاء كلمة الله. نظرت من كوة ضيقة تعد بمثابة نافذة تطل منها على العالم الخارجى، فاستشرقت فى الظلام الدامس ديار بنى قبيلتها من عرب البقوم المسالمين، الذين يعملون فى رعى الأغنام وزراعة بعض المحاصيل، بالإضافة إلى أشجار النخيل التى تتاخم حدود البلدة، وتتناثر فى أنحاء (تربة) وفى أطرافها.. لم تتمكن من رؤية معالم بيوت القبيلة، لكنها تجوس بعينيها فى ظلمات الأمكنة، وتنفذ ببصيرتها خلف حجب الظلام... هذه دار ياسر، ابن خالها، وهذه دار سعد، ابن عمتها، وهذه دار... وطفقت تمرن ذاكرتها، كى تحصى الديار المتناثرة، وقلما تسرب ضوء شحيح من إحداها، فيبدد قليلاً من ظلمة المكان.. وتذكرت والدها - رحمه الله - الذى كان أميراً للقبيلة، واحترام أبناء القبيلة له، لورعه وتقواه ورجاحة عقله. وقد ورثت عن أبيها الكثير، ومازالت دار أبيها معقلاً وملاذاً لكل فرد، سواء من القبيلة أو من خارجها. استمدت القوة من أبيها، والمال من زوجها.. وظلت على العهد وفية، بالثراء الروحى والمادى الذى ورثته..

و(الساحرة)، كما يصفها الأتراك والأوربيون، لما عرف عنها من قدرة على إخفاء الوهابين عن أعين الغزاة الذين جاءوا لمحاربة الدولة السعودية الأولى فى الحجاز.. هذه الساحرة تبيت ليلتها مستبدة الخاطر، مؤرقة الجفون، تعانى حالة من الضعف البشرى، وقلبها يحدثها أن المعركة القادمة أشد عنفاً من سابقتها... ألأن محمد على يقود الحملة انتقاماً؟ إنها لاتدرى سبباً لهذه الوساوس، لكنها تثق فى الله، وتتوجه إليه بالدعاء.. ورغم أن قوة الوهابين فاقت كل ماهو متوقع، إلا أن كثرة العدد فى هذه المرة لن يأتى بالنصر، مالم تؤازره خطة محكمة.. وبدأت تخط رسالة إلى الإمام عبد الله بن سعود، تطلب منه النجدة والمؤازرة فى مواجهة جيش محمد على.. وكتبت فى رسالتها كلاماً كثيراً.. كتبت عن الإيمان بقضاء الله، وأنها تعتبر نفسها جندية فى جيش أمة محمد عليه الصلاة والسلام.. لكنها، فى سطور أخرى من الرسالة، تتساءل : لماذا يحارب المسلم أخاه المسلم؟ وقالت: إنها ترى أن الغازى يطمع فى توسيع امبراطوريته، ويرمى إلى وأد الدعوة الوهابية.. وفى ختام رسالتها قالت أنها تؤيد توحيد البلاد، من خلال الدعوة التى يتزعمها آل سعود، ويناضلون من أجلها، تحت راية الإسلام الخفاقة.. و"إن الدعوة الإصلاحية التى تقودونها يا آل سعود تقف متحدية أصحاب النظريات الفلسفية والأفكار الوجودية، لتؤسس الدولة الإسلامية، طبقاً لتعاليم الدين الحنيف...".

وبعد الانتهاء من كتابة الرسالة، تنبهت إلى ولديها جاسر وزملة، اللذين كانا يجلسان خلفها، دون أن يحدثا صوتاً.. فهما يعرفان كم يؤرق أمهما الهمس الخفيف، وهى منهمكة فى الكتابة.. احتضنت زملة وأوصت جاسر بحمل الرسالة – بعد أدائه صلاة الفجر – ويسلمها إلى ابن عمه، الذى سيتولى بدوره تسليمها لمن يحملها إلى الإمام..

الفصل الثالث

سقـــوط "تربـــة"

وقامت الحرب، بشراستها وعنفها، وسقط قتلى من الجانبين.. وفى النهاية، سقطت (تربة) عام ١٢١٣هـ..

لم تكن غالية متأكدة من وصول رسالتها إلى الإمام عبد الله بن سعود.. حيث تنقلت بين أكثر من رسول.. وكان الإمام السعودى مشغولاً بمقاتلة الخصوم، ومتابعة أنباء المعارك الضارية المشتعلة فى مواقع عديدة من البلاد، وسقطت أعداد ضخمة من القتلى لم يتوقعها الإمام. واعتصمت غالية فى دارها، تتابع الأنباء التى تصلها عن سير المعارك غير المتكافئة مع الغزاة الذين أتوا للانتقام، بأحدث الأسلحة التى لم يعهدها أهل القبائل والعشائر. كما أن المتطوعين أتوا من قبائل عديدة، وكان ينقصهم أن يكونوا تحت قيادة واحدة وخطة محكمة. وأتتها أنباء الهزيمة والانكسار، ولم تصدق ماسمعت من أن الإمام عبد الله، حقنا لدماء شعبه، أعلن استسلامه.. وتم أسره، واقتتد إلى (استنبول)، حيث كانت نهايته.. إلا أن المقاتلين لم يتزعزع إيمانهم بأن النصر آت فى القريب، إعلاء لراية الإسلام التى تعلو على كل الرايات..

ورحلت غالية عن دارها، وسكنت مع بدو الصحراء، ومعها جاسر وزملة..

دمعت عيناها، وهى تسمع الأنباء الحزينة، وتوجهت فى صلاتها إلى الله عز وجل، تسأله أن يزيح الكرب ويزيل الغمة.. أحست بآلام فى صدرها، فهرع إليها جاسر وزملة، وأحاطاها عن يمين ويسار، إحاطة السوار بالمعصم، وأرقداها على الفراش، وسعيا لمداواتها، لكن الآلام تشتد، وما عاد يجدى دواء طبيب.. ومرت بها الأيام ثقيلة، وصحتها آخذة فى التدهور.. تحدثت إلى ولديها بكلمات قليلة هامسة، بصوت واهن.. طلبت منهما أن يواصلا الرسالة، من أجل تحرير البلاد.. وروت لهما ما رأته فى المنام، من هاتف يبشرها بنصر قريب.. وتلا عليها قول

الله عز وجل: "ألا إن نصر الله قريب".. وأخذت تردد الآية مرة، وتنطق بالشهادتين مرة أخرى.. ويتكرر الصوت الواهن مرات، وفى كل مرة يخفت ويضعف أكثر فأكثر.. حتى تبدد وتلاشى تماماً، وأسلمت الروح الطاهرة إلى بارئها، بعد حياة حافلة بالتضحيات، وهبتها لخدمة الوطن، فكتب اسمها بحروف من نور، وأهلتها سيرتها الفذة إلى أن تحتل مكانتها مع المجاهدات المؤمنات..

وبعد انقضاء أسابيع قليلة من وفاتها، جلس شيخ البدو مع جاسر، وقال له:

– يا بنى... أنت هنا وسط أهلك.. ونعرف أصلك الكريم.. نعرف جدك الأمير وأمك الشجاعة رحمهما الله.. ونعرف أباك الثرى الطيب رحمه الله.. ونود أن نخطب زملة لابننا فهد..

فرح جاسر، ونادى أخته، وأعاد ترديد كلمات شيخ البدو.. فأومأت فى خفر.. فقال جاسر:

– وأنا وافقت..

****

وبعد سنوات قليلة، تحقق الحلم الذى رأته غالية فى منامها، وهيأ الله لآل سعود النصر المؤزر، إذ تحركوا قرب الرياض، بقيادة الإمام تركى بن محمد بن سعود.. وكان ميلاد الدولة السعودية الثانية..

لكن الباغى عاد من جديد، يثير القلاقل والفتن. ففى عام ١٨٩١م استولى ابن الرشيد على (الرياض)، منطلقاً من قاعدته العسكرية الحصينة فى (حائل) صوب نجد، فهرب الإمام عبد الرحمن وأفراد أسرته، ومن بين أولاده عبد العزيز، الذى بلغ من العمر سبعة عشر عاماً..

وبدأت جولة جديدة لتطهير البلاد من الغزاة...

الفصل الرابع

رحيـــــــل

ما أتعس تلك الأيام التى اضطر فيها الإمام عبد الرحمن أن يهيم على وجهه، بصحبة أسرته.. يقطعون الصحراء الملتهبة رمالها، هائمين على وجوههم، وقد أخبره رسول أرسله الشيخ مبارك، أمير الكويت، بأن الشيخ يرحب باستضافتهم.. بدا الغضب على أسارير الفتى عبد العزيز.. وود لو أنصت إليه والده، لكنه لاذ بالصمت، وكتم ثورة متأججة داخل صدره. وحدث نفسه فى صمت وأنين: أهكذا نطرد من ديارنا؟ كأن والده يقرأ أحاسيس ابنه، فيقول: إن غداً لناظره قريب.. ومازالت علامات الغضب ترتسم على محيا الفتى. ينطلق صوت الشيخ محمد:

– من الحكمة أيها الفتى – أعزك الله – أن نرحل، ونعد العدة لاسترداد أرضنا..

– إنها أرض أجدادى.. هذه أرضى أنا.. فكيف يجرؤ الغاصب على استباحتها؟

– هدئ من روعك..

يستقبلهم شيخ القبيلة مرحباً، ويتحاور مع الشيخ محمد:

– أرجو أن تقبلوا ضيافتى الليلة..

– إننا على سفر طويل..

– إلى أين؟

– إلى الكويت..

يفاجأ شيخ القبيلة بالإمام عبد الرحمن، فينحنى تعظيماً له:

– شرفت القبيلة بقدوم جلالتكم. اليوم نسعد بكم، آل سعود..

يواصل تحية أفراد الأسرة الملكية واحداً واحداً.. ويقدم نفسه:

– أنا الشيخ ياسر، شيخ القبيلة. نحن ندين بالولاء لمليكنا المفدى، ندين بالولاء لرافع لواء الإسلام..

اندفع عبد العزيز فى شجن، متحدثاً مع الشيخ ياسر عن الديار التى سلبها الغاصب الأثيم..

قال الشيخ ياسر :

- أبناء القبيلة كلها جنود رهن إشارتكم. إن ننس لا ننسى أيادى آل سعود.. كم رفعوا لواء الوطن، كم وحدوا الجهود.. إنه تاريخ عظيم مكتوب بماء الذهب على صفحات الزمن.. وأنتم - أعزكم الله ونصركم بنصره - خير خلف لخير سلف.. ورحب بالضيوف قائلاً:

- تفضلوا فى دارى، واستريحوا قليلاً من وعثاء الطريق..

فشكره الجميع على حسن الاستقبال..

وأعد الشيخ ياسر وليمة كبيرة. وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، ولم يتركهم الشيخ حتى تأخر بهم الليل، فآووا إلى مخادعهم.. إلا أن الفتى الأمير عبد العزيز ظل مؤرقاً فى فراشه. لم يذق للنوم طعماً، وشرد به الذهن، يفكر فى المحنة القاسية التى يمرون بها.. ويجد فداحة الخطب مرتسمة على قسمات وجه أبيه. وثمة كلمات تنم عن اللوعة والأسى، لم يشأ أبوه التفوه بها، وفطم حسه على الصمت، وإن كان صمتاً مهيباً.. وما كان منه إلا تهدئة الفتى الثائر، لما أحسه من ثورة دفينة يتأجج بها قلبه.. لكن الفتى ظل مؤرقاً طوال الليل. فالانكسار باد على وجه أبيه، باد على كل وجه يقابله.. لكنه قرأ فى عيونهم تحدياً للواقع المرير، فما حدث ليس نهاية الدولة، وإنما بداية كفاح مستميت لاسترداد ما فقد..

شرد فى الماضى البعيد، مسترجعاً غزوات النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - وتوقف عند غزوة أحد. قد تكون الهزيمة حافزاً لنصر أكيد.. فاجأنا الغزاة بالهجوم، ولم نعد أنفسنا الإعداد الكافى.. لاشك أنها كبوة الجواد، وليست انكساراً أو موتاً.. لاشك فى هذا.. ومابالك

بالرسول الكريم، الذى اضطره عذاب المشركين إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، لم تكن الهجرة هزيمة للرسول، وإنما كانت بداية جهاد من نوع جديد، وأعز الله الإسلام بنصره.. تنهد الفتى الأمير، وهو يستنشق هواء الليل البارد. بدأ يستريح قليلاً، ويهدأ خاطره، فأطبق جفنيه ونام، سابحاً فى دنيا الأحلام.. يحلم بالعودة من حيث جاء، يحلم بالعودة إلى (الرياض). وحين يفيق من الحلم، يتذكر أنه سليل آل سعود، بأمجادهم ومفاخرهم.. وكلما تعثرت به السبل يندفع بصرخة مدوية:

– أنا ابن فيصل..

قاصداً أنه حفيد فيصل، كما يندفع فى زهو قائلا :

– أنا أخو نورا..

وهى الأخت التى أعجب بها كثيراً. ومن المألوف أن يستنجد العربى بأسماء أعز الناس وأقربهم إليه، وعادة يكون أخا أو أختاً.. وغلبه الحماس والفخر بنسبه، يعمر قلبه إيمان بأن الله سبحانه لن يخذل أصحاب الحق من عباده المؤمنين.. إلا أن الوصول إلى (الكويت) يتطلب الصبر والجلد لعدة أيام فى الصحراء الواسعة، التى ينبغى أن يقطعوها، برغم المخاطر والصعاب. ولايدرى الفتى أين المطاف غداً أو بعد غد.. فالطريق إلى الكويت وعرة المسالك، محفوفة بالمخاطر، ومازال الأعداء يتربصون بهم فى كل مكان.

غادر الركب القبيلة المضيفة، بعد توديع حار، على أمل العودة من جديد.. وودع شيخ القبيلة الإمام عبد الرحمن قائلاً:

– عود حميد.. ونصر آت بإذن الله..

ورنت كلمات الشيخ فى أذن عبد العزيز رنيناً حلو الإيقاع. وود لو أنه هتف فى أذن الشيخ، بل صاح فى الجمع الملتف حولهم، بأن مايقوله أمنية غالية ينبغى أن يسعى الجميع

لتحقيقها.. لكن صغر السن، ووقوفه وسط رجال أكبر منه، جعلاه سادراً فى صمته، وإن اعتصر قلبه الألم. وكان بعض المرشدين، قد تناثروا بعيداً، متفرقين، يستطلعون الطريق فى مختلف الاتجاهات، حتى إذا ما أنسوا الأمان، أشاروا للركب كى يتحرك إلى الوجهة التى يقصدها آل سعود.. وكان المرشدون قد تحركوا – من قبل – على ظهور الجمال، منذ فجر اليوم، واتخذوا مواقعهم فى جوف الصحراء المترامية، يعتلون الربى والتلال، ويشخصون بأبصارهم.. وظلوا على حالهم، حتى بزوغ أول ضوء من النهار، ووضوح المعالم..

الفصل الخامس

هذه ليلة عرس

واصل الركب مسيرته إلى أن وصل بأمان إلى قبيلة الشيخ ابراهيم حسان، الذى رحب بهم وأكرم وفادتهم.. والحفاوة التى وجدوها عند قبيلة الشيخ ياسر، وجدوها أيضاً عند قبيلة الشيخ حسان.. حتى خيل لعبد العزيز، الفتى الثائر، أن الكل مؤيد مؤازر.. لكن كيف تتوحد وتتكاتف هذه القوى المتفرقة فى الصحراء مترامية الأطراف؟ حين حدث والده، طلب منه التريث والتمهل.. وما المحنة التى يمرون بها إلا محنة عارضة، أشبه بسحابة من سحب الصيف، سرعان ما يبددها ضوء الشمس، ضوء الحقيقة الناصعة.. تلك الحقيقة المتمثلة فى كتاب الله العزيز، وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلم. وأى انحراف عن الطريق الذى رسمه لنا الله عز وجل، لا طائل من ورائه، ويعتبر لغواً بل باطل الأباطيل.. وهل يمكن لأحد إنكار التحالف القوى الذى تم بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، لتمتد الدولة السعودية من الخليج العربى إلى البحر الأحمر؟

لم ينسى الفتى هذه التعاليم التى شادت حضارة امتدت فى أرجاء العالم.. لكنه يفكر بينه وبين نفسه فى أن الحق يحتاج إلى قوة تدعمه وتسانده. أبان لوالده ذلك، فطفق الوالد يحدثه عن الإيمان الذى يعمر قلوبنا، وله فعل السحر فى النفوس، وعن وعد الله بنصر المؤمنين..

أما الشيخ ابراهيم حسان، فلم يكف عن الحديث الحلو، وعن ذكريات سمعها من جده، إبان حكم الإمام محمد بن سعود:

– لولا حرص الإمام على عدم إراقة المزيد من الدماء، لكان للمعارك مسار آخر لصالح الدعوة السلفية، وحكم آل سعود.. ناهيك عن شرزمة من الخونة، الذين اندسوا ينشرون الفتن والمكائد..

وتشاء المقادير، أن يمرض الشيخ محمد، دليل الركب الأمين فى مجاهل الصحراء، فأصر الشيخ حسان على استضافتهم لحين شفائه.. لكنهم كانوا مضطرين إلى مواصلة الرحلة فى أقرب وقت.. فتكفل الشيخ حسن بعيادته، على أن يلحق بهم فيما بعد، بصحبة مرافقين من القبيلة. وعهد أمر علاجه إلى طبيب حاذق.. وحين هموا بالرحيل، هبت عاصفة رملية شديدة، فتأخروا عدة ساعات.. وبشرهم الشيخ حسان بأن قبيلة مجاورة ستصحبهم إلى حدود الكويت، حيث ينزلون ضيوفاً على الشيخ مبارك..

استقبلهم الشيخ طه، زعيم القبيلة الثالثة، بعد مسيرة يومين فى قلب السهول والأودية. وكان الشيخ مستعداً برجاله، على مصاحبة الركب السعودى إلى حدود الكويت، وكان رسول من عنده، قد أسرع قبلهم، يخبر حرس الحدود بقرب وصول العائلة الملكية.. وأعدت الترتيبات.. إلا أن أحد حراس القبيلة، أسرع يخبرهم – عند حلول المساء – بأن غارة من عشرين رجلاً راكبين، تتجه نحو القبيلة. وبسرعة أمر الشيخ طه – الذى يناهز السبعين من العمر – بإيقاد المشاعل، وحمل الدفوف، لإحياء ليلة عرس. وفعلاً تغير حال الناس فجأة، وتحلقوا.. وأدى الشباب رقصة من رقصات البدو، وفى يد كل منهم سيف يؤدى به حركات إيمائية على إيقاع الدفوف، وهم ينشدون أغنية بدوية تحية للعروسين!.. وفى محفل آخر، أعدت الموائد، وبدأ معدوها – رائحين غادين – يحملون أطباق الطعام وأوانى الشراب.. وفى إحدى الخيام، يعلو صوت الفتيات، بأغنية شعبية، ويطلقن – من حين لآخر – الزغاريد.. وكان مشهداً رائعاً، لولا أحد الرجال همس فى آذانهم بأن عرس الليلة، نوع من توخى الحذر والحيطة.. واستعد رئيس القبيلة للقاء القوة المغيرة عند أطراف نائية، بعيداً عن التجمعات، وقال له قائدهم بخشونة وغلظة:

– نحن نبحث عن سعوديين..

– وما الدافع لمجيئهم إلى هنا؟ هاك قرى صغيرة متناثرة. كما ترى، منطقة نائية مهجورة، والقوم هنا بسطاء، يعيشون على المرعى وما تنبت الأرض، ويتنقلون من أرض إلى أرض..

– أرى المشاعل موقدة..

– حفل عرس. هل تقبلون دعوتى ؟

– عفواً أيها الشيخ.. لكن آثار أقدام دلتنا إلى هنا..

– أكرر : أننا قوم رحل..

قال فى مساومة مكشوفة :

– لك مكافأة مالية كبيرة، إذا أرشدت عن أحد السعوديين، أو نصير لهم..

قال الشيخ طه مراوغاً :

– ليس لنا دخل بهم، ولا نعرفهم..

وهم بالانصراف، بإشارة من يده للقوة المصاحبة له.. ثم مالبث أن رجع ثانية، وقال للشيخ طه مهدداً :

– الويل لك، أيها الشيخ المسن، إذا ثبت أنك تؤوى سعودياً واحداً..

– ماعندى قلته..

– حياك الله..

– حياك الله..

ولما رجع الشيخ إلى ضيوفه، طمأنهم خيراً.. وأخبرهم أنه سوف يخطط لرحيلهم مع تباشير الصباح. واستطرد قائلاً لمرافقيه:

– أكملوا ليلة العرس، تحية للضيوف الكرام.. حكام البلاد الشرعيين..

وكانت ليلة من أسعد الليالى التى قضاها الضيوف. وأعجب الفتى الثائر بحنكة الشيخ، وسرعة بديهته، وتصرفه الذكى. وأدرك الجميع أنهم سينتصرون، بفضل أهل البلاد المؤازرين لقضيتهم.. وقضى الفتى الثائر ليلته، تخالجه أحاسيس متباينة، لكنه استشرف آفاق المستقبل، وأدرك أن البلاد فى حاجة إلى القائد الملهم، القادر على لم الشتات، وتجاوز الخلافات والأهواء، وتجميع القوى تحت لواء واحد..

الفصل السادس

الإقامة فى الكويت

عبروا الحدود إلى الكويت، واستقبلهم وفد كويتى مرحباً.. ثم التقوا بالشيخ مبارك، الذى هيأ الإقامة اللائقة بهم. ولم يخف الإمام عبد الرحمن عن ابنه أمنيته بإعادة مجد آبائه وأجداده السعوديين، وتطهير البلاد من العصاة والدخلاء، حتى ترتفع الراية السعودية، التى ينضوى تحت لوائها أبناء الشعب، وتتوحد البلاد، فى ظل تعاليم الإسلام الصحيحة.. بعيداً عن الخرافات والأباطيل.. بعيداً عن الفتن التى بثها الانجليز والأتراك.. بعيداً عن حوادث السطو والنصب والقتل من عصابات قطع الطرق.

وتحمس الفتى، ودفعه حماسه إلى تعجل الأمور، لينقض كالصقر يفتك بالمخربين، ويعيد الحق لأصحابه.. استمهله والده، ونصحه بالتريث، مؤكداً أن يوم التحرير آت لاريب فيه.. إلا أن الأخبار الواردة من بلادهم، تحمل نذر سوء.. فالمريض الذى تركوه للعلاج لدى قبيلة الشيخ حسان، لفظ أنفاسه الأخيرة. قضاء الله الذى لاراد لقضائه، وبعث زعيم القبيلة برسالة تعزية فى المصاب الذى احتسبوه عند الله شهيداً.

مات الشيخ محمد، المرشد والدليل.. مات أصدق الناس وأخلصهم.. كان هادئ الطبع، فطناً، كيسا.. لايسمح بانفعال زائد يملى عليه مايندم عليه. وكان صاحبهم ومؤنسهم فى رحلة المشقات، ودلهم على الطريق الآمن الذى يسلكون، والقبائل التى تدين لهم بالولاء.. وقد استرد الله وديعته، قبل أن يكمل معهم الطريق، ويجتاز الحدود..

ترحموا على الفقيد، وقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة..

وما هى إلا أسابيع قليلة، حتى تناهت إليهم أخبار الهجمة الغادرة، التى قام بها عساكر ابن الرشيد، على قبيلة الشيخ طه، والفتك برجالها وزعيمها.. بعد ما علموا بلجوء العائلة

السعودية إلى الكويت، بمساعدة القبائل المناصرة لهم.. غدروا بالشيخ طه وقبيلته، كما أسروا الشيخ حسان، وعدداً غير قليل من أنصاره.. نال الإمام هم شديد، واكتئاب صدر الصقر الجريح، الذى رأى فى الشيخ طه الشجاعة والتضحية.إنه رفض اغراء المال، وحمى آل سعود من غدر الفرقاء، وضحى بنفسه ورجال عشيرته، من أجل تأمينهم، واحتسبهم الإمام شهداء فى أشرف معركة، معركة انتصار الحق على الباطل.. وهم عبد العزيز بالبكاء، إلا أنه تماسك، وقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء، مدركاً أن أمة فيها هذا النوع الفريد من الرجال، أمة لاتقهر.. أمة كهذه، سيكتب الله لها البقاء..

وإن ينس لاينسى مقولة الشيخ طه التى كان يرددها من حين لآخر:

– نصر قريب بإذن الله ..

وثمة أنباء أخرى ساءتهم.. إلا أن الفتك بالشيخ طه ورجاله، كان أسوأها.. وطافت بذاكرة الفتى الأسمر، الصعاب والمخاطر التى جابهها الرجال الشرفاء.. إنه يذكر بعضهم، لكن من المؤكد أن هناك كثيرين لايذكرهم الآن، وآخرين لايعرفهم، لكنهم يعرفونه، ويعرفون آل سعود وتاريخهم، يعرفون حميتهم وغيرتهم على الأراضى المقدسة..

وإن ينس لاينسى رحلة الصحراء القاسية، التى تعلم منها الصبر والجلد، واستوعب منها دروساً فى العزيمة والإرادة.. الطريق وعرة والمخاطر مهلكة.. قضوا أسابيع طويلة فى قلب الصحراء، يتجولون من مكان لآخر، إثر سقوط (الرياض) فى أيدى ابن الرشيد بدون وسائل مقاومة متاحة. ورغم حياة المنفى القاسية، إلا أن الشيخ مبارك آل الصباح، أمير الكويت، جعل منها حياة محتملة، بتشجيعه ورعايته..

طفق الفتى الثائر يسترجع أمجاد أسلافه العظام، يستمد من سيرتهم ومواقفهم الشجاعة والحماس. ولما أحس الشيخ مبارك بلواعج الفتى عبد العزيز وأساه، قال :

– إن الحياة فى المنفى لاتستهوى شاباً جسوراً كعبد العزيز..

واعتاد أن ينادى عبد العزيز دائماً بقوله "ابنى"، ويظهر له الحنان بطرق مختلفة عديدة. فقد كان الفتى فى السابعة عشر من عمره، عندما استقرت أسرته فى الكويت، منفيين سياسيين.. وبمرور الوقت، وبالتدريب والتعلم، والاقتداء بمن هم أكبر سناً منه، تفوق عبد العزيز على أقرانه، ساعده على ذلك طوله المميز عن نظرائه من الشباب. وبالتدريب الرياضى المنتظم، نما جسمه مفتول العضلات، وتمرس على استعمال أدوات القتال، كالسيف والرمح والبندقية، مع استعداد طبيعى أهله للتفوق فى النواحى العسكرية. قد شب أبى النفس، قوى العزيمة، لايعرف لليأس طريقاً، وقد أهلته هذه الخصال إلى مكانة مرموقة..

استطاع عبد العزيز أن يجمع من الرجال الأشداء مايشكل قوة صغيرة تحت قيادته.. وكان قد انقضت عشر سنوات على إقامة العائلة فى منفاها بالكويت. وفى عام ١٩٠١م قاد الشيخ مبارك هجوماً رئيسياً ضد الطاغية ابن الرشيد.. وقاد عبد العزيز القوة الصغيرة التى أنشأها، ليخلص (الرياض) الأسيرة من مخالب المغتصب. وما إن وصل إلى مشارف المدينة، وبدأ الهجوم، إذا بالأخبار السيئة تأتيه، باندحار الشيخ مبارك. ورغم جسارة عبد العزيز، إلا أنه حريص على ألا يتصرف تصرفاً طائشاً، غير مأمون العواقب، وتحت وطأة إحساس طاغ بأن هزيمة الشيخ مبارك، من شأنها أن تثنيه عن مواصلة السير الحثيث فى اتجاه (الرياض) لتنفيذ عمليته الهجومية.. طلب من رجاله العودة إلى (الكويت). وأياً كان الأمر، فالحرص والحذر ضروريان.. فلربما ساعة الهجوم الناجح لم تحن بعد.. نعم، للإقدام وقته المناسب.. فليدخر جنده وقوته.. وكفاه أنه خاض التجربة، وعرف أسلم الطرق الذى يسلك، وراجع نفسه، ليأخذ أهبته واستعداده لهجوم مركز فى يوم قريب.. وإن فشلت هذه المحاولة فى تحقيق مايصبو إليه، فإنها نجحت فى التدريب والاستعداد لهجوم آخر.. وكفاه أنه أصبح حديث العالم..

تحرير الرياض

وفى العام التالى، كان عبد العزيز أكثر استعداداً لخوض القتال، استشعر ذلك فى دخيلة نفسه، واستمدها من حماس رجاله، ومن الرسائل التى كان يبعث بها المخلصون من أبناء الوطن الأسير.. ومن أرواح الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل خلاص الوطن المفدى.. فاستعان بالله وقرر كسر الجمود، وتحطيم جدار العزلة الذى يفصل بينه وبين أرض أجداده العظام. وكان رفاقه قليلين، لكنهم أهل ثقة وخبرة، فقرر البدء بالهجوم لاستعادة (الرياض). وكان مشهداً أخاذاً من مشاهد الشجاعة التى وصل فيها القائد إلى ذروة مجده. وانتشرت فى شتى بقاع الأرض، أخبار المعارك الدائرة فى ربوع الصحراء، وكلها تشير إلى سطوع نجم جديد فى سماء الجزيرة العربية. وقد واصل أعداؤه القتال باستماتة لعدة سنوات : سقط البعض صريعاً فى مواجهات حاسمة، وحارب البعض الآخر حتى لاقى حتفه.. وفى كل الأحوال، لقن الأعداء درساً قاسياً فى أتون المعركة، مما اضطرهم إلى اكتشاف المناورات السياسية التى غرروا بها، إزاء ما ألفوه من القائد المنتصر من مروءة وشهامة، فرضخوا مستذلين، يلتمسون صفحه وعفوه !

ودخل القائد وجنوده مدينة (الرياض) منتصرين، وسط ترحيب شعبى لانظير له. ولقب عبد العزيز بألقاب عديدة، مثل : أسد الجزيرة العربية، و(لورد) العرب، إلا أن لقب (صقر الجزيرة) هو الأنسب والأوقع، حيث عبر أصدق تعبير عن الملحمة البطولية عام ١٩٠٢م، وعن ذروة النجاح فى استعادة الرياض، إيذاناً ببدء عهد جديد لآل سعود. كما أن لقب (صقر الجزيرة) يتطابق مع لقب (صقر قريش) لعبد الرحمن الداخل، الأمير الأموى الطريد – بعد سقوط الدولة الأموية فى دمشق – الذى أرغم على الفرار بمفرده من شاطئ الفرات، والرحيل

آلاف الأميال متنكراً من أعداء دولته. وأحكمت مطاردته حتى وصل إلى الأندلس جنوبى أسبانيا، وأسس عام ٧٥٦م إمارة مستقلة فى (قرطبة). وهذا التطابق لايمكن لأحد إنكاره أو إغفاله.. وأقام هناك الملك العربى الإسلامى. وفى المكان القصى، لايملك عبد الرحمن الداخل إلا الإيمان والصبر.. الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – والصبر على المكاره والصعاب.. لذا كان لقب صقر الجزيرة لعبد العزيز متساوقاً مع لقب صقر قريش لعبد الرحمن الداخل.

إن الطريقة التى استرد بها عاصمة البلاد، هى الدليل القوى على المزاوجة بين عنصرى المفاجأة والذكاء العسكرى، وعلى الخطة المحكمة المدروسة دراسة متأنية، والمعدة إعداداً جيداً.. فقد خرج عبد العزيز من موقعه بالكويت، قائداً لقوة لاتزيد على أربعين رجلاً، ثم لحقت بها قوة ثانية مساندة من عشرين رجلاً.. وكانت الرحلة عبر الصحراء مضنية وشاقة، فى موكب مهيب.. فقد حان الوقت للثأر والانتقام لأرواح الشهداء، واستعادة الأرض من غاصبيها.. وإن خالج والده شئ من الريبة، غير متيقن من نجاح الهجوم، إلا أن كبرياء ابنه وطموحه، إلى جانب مهارته العسكرية، جعل الأمور تسير فى اتجاه لم يتوقعه الأب، وإن كان يسره ويرضيه.. وكان معروفاً عن ابن الرشيد أنه ذو قدرة عسكرية هائلة، ويستطيع بإشارة من أصبعه أن يحشد تحت لوائه الآلاف من المقاتلين المدربين على استعمال السلاح !

وقد وضع الإمام عبد الرحمن القاعدة الأساسية للهجوم، بعمل حزام صغير مكون من ستين رجلاً. ويتم لعبد العزيز وجنوده البواسل تسلق الأسوار، واحتطاب نخلة وحملها، وإعداد ضفيرة من أليافها، تكون سلماً يرتقونه.. كما اتخذوا من جذع النخلة ركيزة ومتكأ.. وفى الليل البهيم، حيث الصمت المطبق والناس نيام، يهبطون إلى قلعة ابن الرشيد، ويسجنون من بها من الجنود والخدم، ويكممون أفواه النساء، ويجدّون فى إحضار المدد من خارج المدينة، ويتحلق

الجيش الصغير فى حلقة دائرية حول القلعة.. ويصلون الفجر، وينتظرون طلوع النهار، حيث ينفتح باب القلعة، ويخرج منه الحاكم ومن حوله ومن فوقه جنوده، فتدور معركة ينهزم فيها الخصم العنيد، وتعلو راية النصر.. وقدّر لعبد العزيز - بفضل الله وعونه - انتزاع لؤلؤة الصحراء - كما كانت تسمى (الرياض) - وافتتاحها ليلة الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ على رأس قوة تتألف من ستين مقاتلاً، منهم محمد بن عبد الرحمن. واستطاع أن يحول هذه اللؤلؤة إلى قاعدة عسكرية ينطلق منها إلى عمليات عسكرية أخرى.

وبذلك النصر العظيم، تحرر قصر (المصمك)، أهم المعالم التاريخية للرياض. وبدأ عند بوابته الانطلاق إلى تحرير أراضى المملكة وتوحيدها. و(المصمك) أو (السمك) تعنى المبنى القوى والقصر السميك، حيث يبلغ سمك جدرانه الخارجية نحو مترين، ويتميز بالجدران العالية. وكان القصر داراً للسكن والحكم وبيتاً للمال.. بناه الإمام عبد الله بن فيصل بن تركى عام ١٨٦٥م، فشيده قصراً محصناً..

عمت الفرحة قلب كل مواطن فى شتى بقاع المدنية، التى تنفست الصعداء واستراحت من بطش المحتل الدخيل. وتزينت بيوت السعوديين، وارتفعت رايات النصر فى كل مكان.. وأيقن الجميع، حكاماً ومحكومين أن النصر الذى تحقق من عند الله العزيز، جزاء وفاقا لعباده المؤمنين، الحريصين على كتابه الكريم.. ورأى الملك عبد العزيز فى هذا النصر بداية جولات أخرى.. فلابد أن تبسط الدولة السعودية نفوذها وسيطرتها على أنحاء المملكة، وتحرر الناس من أباطيل كانوا يعتقدون خطأ فى صحتها، وهى ليست من الدين.. ولابد أن تواجه الدولة المنحرفين مواجهة حاسمة طبقاً لأحكام الشريعة، وتقضى على الفرقاء الذين جثموا على صدر البلاد يزرعون الفتن والمكائد.. وبدا قصر (المصمك) أثراً تاريخياً يرمز لسنوات الكفاح المرير.. وكان شاهداً على سنوات القهر، لكنه ظل شامخاً صامداً، يشى بالحق الضائع الذى لابد أن يعود يوماً لأصحابه، ويرمز للصمود والإباء..

وتعود العائلة السعودية من منفاها إلى أرض الوطن. يتعانق الأب والأبن، ويلتف الناس حولهما، يتوجونهما بأكاليل الحب والوفاء، ويؤمرون عليهم عبد العزيز، وكان ذلك إيذاناً ببدء عهد سعيد..

وشرع الملك عبد العزيز فى بناء قصر ثان عرف باسم (المربع)، على مساحة ألف متر مربع، عام ١٩٢٦م .. وأصبح قصر الملك الذى يزاول منه الحكم، ويشكل القاعدة الأساسية التى ينطلق منها لتحرير البلاد.. وتسلم الملك عبد العزيز مقاليد الحكم، وارتفع فوق الصغائر، وآل على نفسه خوض المعارك، واحدة بعد أخرى..

الفصل الثامن

فتوحات صقر الجزيرة

لم يغمد الملك عبد العزيز سيفه بعد.. فقد تطلع إلى تطهير البلاد من أقصاها إلى أقصاها، ولتكن الرياض – العاصمة المحررة – هى قاعدة الإنطلاق..

انتصر على الأتراك واستولى على (الأحساء) عام ١٩١٣م، وأحكم سيطرته على قطعة غالية من أرض الوطن، والتف حوله الأنصار، وهم جموع شعبه المؤازر المؤيد. وترجع أهمية السيطرة على (الأحساء)، إلى أنها خطوة ضرورية للنفاذ إلى البحر، فى وقت لم تطل الحجاز بعد بموانيها على البحر الأحمر، فكان الاتجاه شرقاً إلى الخليج العربى، خطوة أساسية للخروج من العزلة وامكان الاتصال بالعالم الخارجى، مما يساعد على تنشيط التجارة الخارجية.. وبعد افتتاحه الأحساء، بنى فى (الجبيل) برج الطوية، القائم على طريق الكنهرى، أحد القلاع الدفاعية التى عنى الملك بتشييدها.

ثم جهز حملته للهجوم على القلعة الحصينة لابن الرشيد فى (حائل)، فاستسلموا واستولى على القلعة، وافتتح المدينة وما حولها عام ١٩٢١م، وقضى بذلك على إمارة ابن الرشيد التى سيطرت على البلاد نحو تسعين عاماً. وفى غمرة انتصاراته، كان الملك عبد العزيز مثالاً للطيبة والخير والمروءة والشهامة، لايعرف الحقد طريقاً إلى قلبه، حتى مع خصومه الذين انتصر عليهم. وعندما سقطت قلعة ابن الرشيد فى حائل، أرسل عديد من الرشيديين إلى الرياض، حيث واصلوا حياتهم معززين.. ومنهم فيصل الدويش الذى كان صديقاً، ثم انحاز إلى معسكر الأعداء.. فقد قدم إلى الملك جريحاً محمولاً علي نقالة فى نهاية معركة انضم فيها إلى المتمردين، فعفا عنه، وأمر بعلاجه، لكنه ارتد إلى ميدان القتال يحارب من جديد مَنْ أحسن إليه، بعد ما شُفى من إصابته، فتم أسره، وأودع وراء القضبان حتى وافته المنية.

توالت الفتوحات والانتصارات، وتحرك صقر الجزيرة على رأس قوة من ستمائة رجل، وحطم تحصينات الأتراك فى (الهفوف)، مستغلاً عنصر المفاجأة. هب كعاصفة.. وبذلك أحكم سيطرته على المنطقة الشرقية من الجزيرة، التى تختزن تحت رمالها أكبر آبار البترول فى العالم. واستسلم الحرس التركى الذى يزيد عدده على الألف رجل، بدون مقاومة كبيرة. كما سقطت (القطيف)..

لم تتحقق الانتصارات جزافاً، بل كانت ثمرة للتخطيط السليم والاستفادة من دروس الماضى. وإن ينس لاينسى سقوط الرياض فى أيدى ابن الرشيد. فاستوعب الدرس المؤلم، وأعد عدته لقتال متواصل، استمر ثلاثة عقود. واعتمد فى خططه القتالية على عنصر المفاجأة، واللجوء إلى الحيلة لخداع خصمه فإذا ما أراد الهجوم من جهة الشرق، أعطى الأوامر – تمويهاً – للتحرك غرباً. وما إن ينتشر جيشه فى منطقة معينة، حتى يغير المسار ويتحرك فى الاتجاه الذى حدده من قبل.. فأربك الجواسيس المندسين في أماكن كثيرة.. وقد احتفظ بخططه ونواياه الحقيقية لنفسه، لايطلع عليها أحداً ولو كان من المقربين. والمثل الواضح لذلك، غزو الفدائيين للرياض، ومعركة تربة..

وهكذا سعى صقر الجزيرة إلى توحيد المملكة مترامية الأطراف، بما عرف عنه من أدوار قيادية رائدة. ونذر نفسه لخدمة المبادئ السامية، وأعاد للبلاد مجدها المبنى على دعائم الدين الحنيف، والالتزام بتطبيق أحكام الشريعة.. وتحقق له تشييد الكيان السليم للمملكة، القائم على وحدة القلوب والمشاعر.

الفصل التاسع

مصاعب وأزمات

لم يكن الطريق إلى النصر مفروشاً بالورود، فقد سقط الشهداء الذين خضبوا أرض المملكة بدمائهم الزكية.. كما واجه صقر الجزيرة مواقف صعبة عبر مراحل الكفاح، لكنه تحلى بالحكمة والصبر.. من هذه الصعاب، تلك الآلام التى اشتدت عليه، من أثر رصاصتين استقرتا أسفل التجويف البطنى.. تلوى فى فراشه، لكنه حرص على ألا يُسمع له صوت، وقد اعتاد تحمل الآلام والصبر على المكاره. وليس ثمة وسيلة سوى الصبر والجلد. يكاد يفتك به الجرح، وهو يئن أنيناً مكتوماً، وعانى فى ذلك آلاماً مضاعفة. مَنْ يأتى له بطبيب؟ وأمسك بسكين، رأى فيها آلة تشبه مشرط الجراح، وما عليه إلا أن يطهرها بالماء، السائل الوحيد المتاح الآن، ويجففها. قد تكون ملوثة بعض الشئ، لكنها الأداة المتاحة الآن، ربما تنهى بعض آلامه المبرحة، فإذا ما كتب الله له النجاة، يكون قد استراح مما يعانى، وإذا حان الأجل فلا راد لقضاء الله.. هكذا تعلم من والده وأجداده العظام. تناول السكين المشرط، وقطع الجلد من الموضع الذى أحس فيه أن الرصاصتين تستقران تحته، وتلوى قلبه من شدة الألم، لكنه صبر.. وتصبب عرق غزير من جبهته، وتساقطت دموع وهو ينطق بالشهادتين. وما إن بدأ يقترب من موضع الرصاصتين، حتى هرع إليه أحد المقربين، على صوت أنين يشبه الهمس، وأسرع يأتى بالجراح..

كما يذكر إصابته بجرح آخر، وقد حمى وطيس المعركة، فما كان منه إلا الانسحاب دون أن يشعر به أحد، عائداً إلى معسكره، يحرسه مساعدوه من كل جانب، وحرص على ألا يراه أحد وهو يعرج، وربط الجرح بضمادة مؤقتة، وعاد سريعاً إلى أرض المعركة يواصل مهامه بثبات ورباطة جأش.

وتحققت على يديه انتصارات كثيرة، إلا أن بعض الخسائر لحقت به.. فتدبر أمرها، وتعلم منها دروساً أفادته فى معارك تالية. وقد جهز جيشه بأحدث الأسلحة المعروفة فى ذلك الوقت، كاللاسلكى والسيارات والبنادق سريعة الطلقات. وعملت الصفوة من القيادات العسكرية على تغيير نظام حياة البدو القائمة على الترحال، واستقرارهم فى ثكنات عسكرية، وبدأوا فى تعليمهم استخدام الأسلحة والعمل فى الزراعة، جنباً إلى جنب مع أداء الصلوات فى أوقاتها. وأبلوا بلاءً حسناً فى المواجهات العسكرية التى تعتمد على المباغتة والمفاجأة. إلا أن هؤلاء الجنود لم يكن لديهم بُعد النظر الذى كان يتحلى به الملك عبد العزيز، وتنقصهم الرؤية الشاملة التى تبصرهم بأبعاد الموقف، علاوة على أنهم – رغم كل شئ – لم يكونوا مؤهلين لقبول مستحدثات عصرهم، ولم يوفقوا فى استخدام الأجهزة الجديدة المفيدة لهم، كاللاسلكى والهاتف والسيارة، وظنوا أن مثل تلك الآلات من صنع الشيطان الرجيم، فاستعاذوا بالله من وسوسة الشياطين. وحين جرب أحد الجنود آلة الهاتف، وحاول أن يرد التحية، كما أفهمه الضابط الذى يحاول تعليمه استعمال آلة الهاتف، فما كان من الجندى البدوى، إلا أن ألقى بالسماعة بعيداً، منتفضاً مرتعباً، وهو يتمتم :

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

وأسرع إلى المياه يتوضأ، ويصلى ركعتين، مستغفراً ربه..!

تناهت إلى الملك عبد العزيز أمثال هذه القصص المضحكة المربكة فى آن، فلجأ إلى العلماء المسلمين، طالباً إسداء النصح لهؤلاء القوم الذين خلطوا الأمور، ولا يتبينون الجانب الصحيح.. فانخرط علماء الدين يدرسون، ثم أجازوا استعمال المخترعات الحديثة، طالما هى نافعة للإنسان، بصرف النظر عن بلد المنشأ المنتجة لها. إلا أنهم لم يمتثلوا للفتاوى الصادرة. حتى العلاقات الودية التى كان الملك يمد جسورها مع الدول الأجنبية، كانوا ينظرون إليها على أنها علاقات محرمة، لأنها – بالنسبة لهم – تعتبر تعاملاً مع الكفار!

وكاد ينفد صبره، رغم أن قليلاً من الجنود امتثلوا للفتاوى الجديدة، وهيأوا نفوسهم للجديد الوافد، الذى لم يكونوا على دراية به من قبل.. إلا أن الكثيرين منهم التهبت مشاعرهم، ولم يُجْدِ معهم إلا الحزم.. وقضى على حججهم الواهية، وسقطت دعاواهم الباطلة.. أولئك المرضى بكره ماهو أجنبى، غير مدركين عواقب تخلفهم عن ركب الحضارة الحديثة.. ولربما نتج ذلك الفكر المتخلف من انعزالهم فى الجزيرة العربية مترامية الأطراف، منبتة الصلة بالعالم الخارجى، ولم يسبق لهم الاحتكاك به.. وكانت وقفة الملك عبد العزيز الشجاعة، وانتصاره لمخترعات العلم وانجازاته، حجر الزاوية فى انطلاق البلاد إلى آفاق المدنية.

ثمة صعوبة أخرى واجهت الملك، فى بلاد مترامية الأطراف، قليلة التعداد، ووسائل الانتقال متواضعة.. فهل يمكن للمملكة أن تسرع الخطى وترتقى سلم الحياة الحديثة؟ وأى مسلم يخالجه شك فى إمكان ذلك، يُنصح بقراءة أول آية قرآنية أنزلت، يأمر الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يقرأ. كما دعا النبى الكريم إلى البحث عن المعرفة من المهد إلى اللحد. بهذا المنطق انتصر الملك على الجهلاء وقضى على التخلف، وكسب الرهان فى معركة التحدى، معركة العلم والمدنية، معركة الانتصار على المتعصبين.

كما قاد معارك ضد الخارجين على القانون، وعمل على استتباب الأمن، وقضى على المداهمات المختلفة التى كانت تقع يومياً، وأنهى أسطورة عصابات النهب والسلب التى كانت تجوب الصحراء، وتعترض القوافل، ولم تنجُ قوافل الحجيج من بطشهم.. وكان كل لص يقتطع أرضاً له، ويختصها اقطاعية متوارثة.. وعلى كل شخص، دفع رسم مرور عند العبور. وإذا لم يمتثل يُقتل. فقضى الملك على هؤلاء اللصوص، قضى على الجذور والفروع.. وصدرت الأحكام ضد السفاحين واللصوص والخارجين على القانون..

رحلات ملكية

ما أكثر الرحلات الملكية المتجهة إلى المدينتين المقدستين : مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإلى غيرهما من مدن المملكة المختلفة.. كشفت الرحلات كثيراً من ملامح شخصية الملك.. فهو محب للعلم والأدب، وفروع المعرفة المختلفة.. متسامح عطوف، إلى جانب حسمه وعدله وقوته، والتزامه بتعاليم الدين. كما كشفت الرحلات مدى دقة التنظيم وحسن الترتيب للموكب الملكى، وإدارته إدارة سليمة، فى وقت لم تكن وسائل الانتقال متيسرة ومريحة.. وقد خصص – أثناء الرحلة – ساعة لقراءة آيات من الذكر الحكيم، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، كما خصص وقتاً لقراءة فصول من كتب التاريخ والفقه، ولم يفته تخصيص ساعة لبحث الموضوعات السياسية التى تشغل باله وبال رجاله المرافقين. وكان يحسن الإصغاء لكل واحد منهم.. يستحسن رأياً، ويعلق على آخر، ثم يدلى بالرأى الذى يراه.. كما لاتفوته مناقشة أوضاع الطريق الذى يسيرون فيه، وموقعه من الطرق الأخرى، وأى الطرق أكثر اختصاراً.. وفى إحدى الرحلات، كان ضمن الركب أحد الشعراء الذى ما فتئ يتحفهم من وقت لآخر بقصائده عن فتوحات صقر الجزيرة، وقصائد من الشعر الجاهلى والإسلامى..

وفى رحلة ثانية، كان ضمن الركب المتجه إلى مكة المكرمة شاعر وأديبان درسوا الأدب الجاهلى، والأدب فى صدر الإسلام.. وانبرى الشاعر يتسامر مع الأديبين.. وألقى بعض قصائده.. ثم تركهم الملك فى سمرهم الممتع وانتبذ مكاناً قصياً، يتدبر شئون البلاد.. وطفق الأديبان يشاركان الشاعر فى إلقاء أشعار الموحدين.. وتحلق رجال حولهم، يستمتعون بأنسام رقيقة بعيد غروب الشمس.. قال أحد الثلاثة عن معنى التوحيد، ما قاله حسان بن ثابت شاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم):

ونـعلـم أن اللـه لا رب غــيــره وأن كـتــاب الله أصــبح هــاديــاً

وما قاله كعب بن مالك فى نفس المعنى :

فلمــا لقــيناهـم وكل مــجــاهـد لأصحابه مستبسل النفس صابر

واسترسل الأديبان يرويان ما شدا به المجاهدون القدامى فى فتوحاتهم الإسلامية.

وعن التوكل على الله، أنشدا لكعب بن عميرة الخارجى :

هـذا عـتـادى فى الحـروب وإننى لآمل أن ألقى المنيـة صــابرا

وأنشد لعبد الله بن حذف :

تـوكلـنـا عـلـى الرحــمن إنـا وجـدنا النصـر للمـتـوكلينا

وفى التوبة، أنشدا للفرزدق :

ألا كـل شـئ فـى يـد الـلـه بـالـغ لـه أجـل عـن يـومــه لايـحــوّل

وأن الذى يغـتـرّ بالنصح ضـائع ولكن سـينجى الله من يتـوكل

وأنشد الشاعر لأبى كلدة بن عبيد اليشكرى :

سأركض فى التقوى وفى العلم بعدما ركـضت إلى أمـر الغـوى المشـهـز

وبالله حـولى واحـتـيـالى وقـوتى ومن عنده عـرفى الكثـيـر ومنكرى

****

وكلما مر الركب على قرية، أو منطقة سكنية، التف الناس يحيون الملك المظفر.. كما تتقاطر الوفود من كل حدب لإعلان التأييد والولاء.. ما أسعد عبد العزيز بباقات الحب التى تطوق عنقه، وبجموع الناس البادى على وجوههم البشر.. ما أسعده بكل هذا.. وتذكر أيام نزوحه من الرياض بصحبة أبيه وأفراد عائلته، حين كان شاباً يافعاً.. ما أبعد الليلة هذه عن ليالى الماضى الغابر.. كلما تذكر تلك الأيام، وجد فى تطهير البلاد كلها من أذناب الفرقاء والخصوم، واجباً مقدساً، وقى البلاد من النكسات.. قد انطلق فى معاركه وفتوحاته، وما غمد له سيف، ولا غمض له جفن، إلا بعد أن بسط سيطرته على البلاد..

ويمضى الموكب السعيد، يجتاز صعاب الطريق ووعثائه.. من قيظ الصحراء، وتعب السير في الرمال الساخنة، وقد يصاب أحدهم بمرض.. لكنها أمور هينة يسيرة، يتحملها الرجال، ولاتقارن بما كان يحدث في الماضي، من نزوح عن الوطن، وخوض غمار القتال.. وإن ينسَ لاينسى شهداء سقطوا في ساحة الجهاد، من العائلة السعودية ومن الجنود البواسل، ومن عامة الناس.. وما غالية البقمية وبطولاتها ببعيدة عن الأذهان.. كذلك ضحى رؤساء القبائل والعشائر بأرواحهم وأولادهم وأموالهم، لما رأوه حقاً يستحق الفداء..

الفصل الحادي عشر

ملامح الشخصية

إن تمسك القائد الملهم بأحكام الشريعة، هو الملمح الرئيسي لشخصيته الفذة.. ورُوِي عن رجل يُدعى الشيخ عثمان سفر، كان مغترباً في عهد الحسين، فلما استولى الملك عبد العزيز على الحجاز، عاد الشيخ إلى مكة المكرمة، وكانت له أوقاف بها، استولت عليها ابنة عمه طيلة غيابه، وتصرفت في ريعها تصرف المالك، فتقدم الشيخ بشكواه إلى قاضي المحكمة الشيخ أحمد ناضرين.. وهو قاض عادل نزيه، يضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار. وقد تخرج في المدرسة الصولتية بمكة المكرمة، وأجيز للتدريس في المسجد الحرام، ثم عين قاضياً بالمحكمة الشرعية الكبرى بمكة..

سجل قاضي المحكمة الشيخ ناضرين اقرار الشيخ عثمان سفر، ثم طلب ابنة عمه فأقرت بتصرفها في الوقف أثناء غيابه.. وصادف أن الملك عبد العزيز أصدر في ذلك الوقت منشوراً يقضي بنصرة المظلوم، فلجأت إليه مدعية أنها مظلومة، فأمرها بمراجعة القاضي بأن جلالته وكيلها، فأسرعت إلى المحكمة وأشعرت القاضي ناضرين بأن الملك وكيلها. فسجل إقرارها وأمرها بإحضار الوكيل يوم الجلسة التي حدد موعدها، فأسرعت السيدة إلى الملك وأبلغته بما قال القاضي، وبصفته حامياً للدين، منفذاً لأحكام شريعته، حضر إلى المحكمة بذاته مع الشيخ عبد الله بن بليهد، فأمر القاضي مسجل الضبط بقراءة الدعوى، ثم حكم على المرأة بدفع جميع ما تسلمته من ريع الوقف لعثمان سفر وتسليمه الوقف.. فنظر الملك إلى الشيخ عبد الله بن بليهد، وقال له :

– هذا هو الشرع.

وأعجب بعدل القاضي الذي أرجع الحق لأصحابه، ولم يعبأ بأن وكيل الشاكية هو الملك، طالما أن الحق ليس معها.

لهذا استحق الملك العادل احترام الجميع. وكان يقول للأمراء :

– افعلوا ما ترونه صالحاً.. الحاضر يرى مالا يرى الغائب.. لكن أخبرونى عن كل شئ، من الكناسة إلى السياسة..

وكان يفد عليه كل يوم كثير من البدو والأجانب، يعرضون عليه شكاواهم ورغباتهم، ويتلقون منه أوامره.. وينزل الجميع ضيوفاً عليه وهو مقيم فى الرياض، ويولم الولائم لألف نفس كل يوم، ويعطى كل واحد منهم عند رحيله ثوباً – طبقاً لعادة العرب – وكذلك قطعة من النقود حسب مكانته.

وكانت تمر به لحظات ضعف، نابعة من خوفه على شعبه من الضيم والعوز.. وما أصعب ما واجه حين اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية، وتهدد شعبه بالجوع، فصلى وهو يبكى، وتضرع إلى الله قائلاً :

– اللهم إن كنت غاضباً علىّ، فلينلْنى غضبك، اللهم برحمتك ارحمْ عبادك ولا تؤاخذْهم بعقاب، فإن كنُت السبب فلينزلْ بى عقابك..

وبات ليلته مؤرقاً، واستغرق يقرأ القرآن، ويدعو الرحمن، من أجل انقاذ شعبه.. وما إن أصبح الصباح، فوجئ بالحلفاء يرسلون له العون والغذاء، تقديراً لحياده وإنصافاً له. وكان العون يكفى لإشباع الشعب.. لكن فى (الطائف) تركوا الحب الكندى والاسترالى، واشتروا حنطة السراة، حنطة الضفير (الأميس).. فالخبز الذى أحضر تزامن مع الخير الذى نما فى البلاد..

وقد حافظ الملك عبد العزيز على ميراث أجداده.. وآل على نفسه ألا يرحل إلا وهى على إسلامها وعلى لغتها.. وقد اهتم برعاية الحرمين الشريفين.. وفى عام ١٣٤٦هـ أمر بإنشاء دار

خاصة لصناعة كسوة الكعبة المشرفة، وتوفير كل ماتحتاج إليه هذه الصناعة.. وتم صنع أول كسوة للكعبة فى (أم القرى) واستمر المصنع حتى عام ١٣٥٧هـ.

****

كان ذا شخصية عبقرية وإرادة صلبة وذكاء ألمعيا.

مهيب الطلعة، مديد القامة، أسمر الوجه، قد ارتسمت على قسمات وجهه آثار ما خاض من تجارب وصولات وجولات. فى صوته ثقة وقوة، وفى عينيه مضاء وعزم.

****

وأمكن للقائد الفذ، الملك عبد العزيز، أن يقتدى بآبائه وأجداده من آل سعود، وأن يستفيد من تجاربهم.. فسار مع الدعوة القويمة ليربط شمال الجزيرة بجنوبها، وشرقها بغربها، ويوحد الصفوف، فيزداد الصمود والتحدى أمام الضربات القاسية التى كالها أعداء البلاد فى الداخل والخارج..

وفى سبتمبر ١٩٣٢م، احتل الملك عبد العزيز آل سعود مكانته كقائد بلا منازع. وأغمد السيف الذى حارب به منذ عام ١٩٠٢م.. وأصبحت الدولة السعودية الثالثة تحت سيطرته، يقودها إلى التقدم والرفاهية. ووقع مرسوماً ملكياً ببسط سيطرته على الحجاز ونجد.. وأعلن فى يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م عيد توحيد المملكة العربية السعودية. واحتفل بهذا اليوم كل عام عيداً قومياً للبلاد..

وبعد حياة حافلة بالانتصارات والإنجازات، وافته المنية عام ١٩٥٣م.. وهو القائل:

– لقد بنيتُ هذه المملكة بقوة ذراعى، وسوف يؤدى أولادى دورهم على طريق الازدهار..

﴿تمت بحمد الله﴾

المحتـــوى